مَدْرَسَةُ المُستَحِيل (من المعلم الخدعة إلى المعلم المعجزة)

مالك الريماوي

المدرسة بدون «مقر» : الوجود المعنوي للمدرسة .
«ما دام الناس يولدون فيعانون ويبدعون ثمّ يموتون ، فإنّ الحقيقة غير خالدة» .

المدرسة كصورة لن تكتمل ... صورة لم يتم رسمها بعد

المدرسة التي تستحق أن تسمى مدرسة هي المدرسة التي تبقى وتتخلّد على شكل «اسم بلا مسمى» ، مدرسة دون بناء ، ودون أي أثر مادي ، «والآن لا تجد من تلك السقيفة حجراً واحداً ، والشيء المفيد الوحيد أن اسمها بقي» (ص : 20) . هكذا تبدأ «الرواية» ؛[1] رواية مدرسة "ديوشين" الموصوف بالمعلم الأول ، حكاية تبدأ تنسرد عبر معاندتها في التحول إلى صورة مرسومة .

وينبثق السؤال ليخترق "جهالة المجهول" : كيف بقيت المدرسة وتخلّدت رغم اندثار وجودها المادي ، فما الذي بقي كمعنى غير قابل للاندثار؟ إن هذا هو سؤال عن السر السرمدي ، سر خلود مأثرة/ مدرسة ما ، تبقى في الزمن كمعنى يتعالى على التبدد ، تبقى ليس على شكل مبنى ، وإنما تبقى كحقيقة تجسد رؤية أو ملحمة أو معجزة ما ، وهنا في هذه الرواية صورة لمدرسة اندثرت كل معالمها المادية ، ولكنها بقيت عبر شيء ما لا يقبل التآكل ، فما هو؟ أهو المعلم ومنهجيته؟ أم قصة المدرسة وسيرة كفاحها؟ أم ملامسة طلابها لمصيرهم من خلالها؟ إن مدرسة ديوشين "المعلم" الأول قد تضمنت كل هذه المعاني ؛ تلك المعاني التي تكثّفت في قصة إيمان ومنهجية قادا حركة الزمن عبر استثمار القليل ككيس قش وزبالة -مثلاً- ليصبح قبضة قوة تملك قدرة تعديل المصير .

"لكن الحكم على الصورة ككل يبدو سابقاً لأوانه . فأنا حتى الآن لم اكتشف الشيء المهم وأسير في الصمت قبيل إطلالة الفجر ، وأفكر وأطيل التفكير . هذا ما يحدث في كل مرة ، في كل مرة أتيقن أن صورتي آخذه في تكون لا ينتهي" (ص : 96) .

"أريد التحدث إليكم عن "صورتي التي لم أتمم رسمها بعد" ، هذه صورة لمدرسة ارتبطت باسم معلم ، المدرسة هي المعلم ، والمعلم هنا مدرسة ، بالطبع هي صورتي عن المعلم الأول في قريتنا ، الثوري الأول العجوز ديوشين" (ص : 96) .

صورة معلم تروى على شكل حكاية كفاح ثوري ، كفاح يؤمن بالتعليم ويضعه في موضع الفعل الإنساني التاريخي ، ما يمكنه من رؤيته كحلقة من حلقات التحول الاجتماعي السياسي ، فعبر التعليم تنتصر الثورة أولاً ، وتخلق حالة من الوعي ونوعاً من البشر يستشرفون الأحلام البشرية في الحرية والعدالة ، ويحملون راية تحقيقها ، ويتحملون الألم كثمن لهذه الأحلام .

مدرسة في صورة معلم ، معلم تحكي حكايته طالبة من طالباته ، تروي تفاصيل صورة ، صورة المعلم الأول ، تروي لنا الحكاية وتورطنا عبر استدراجنا لنراها بوصفها حكايتنا ، توريط مضاعف ، فإذا كانت الحكاية حكايتنا ، فديوشين هو أيضاً معلمنا ، عندها ندخل معها في عملية الرسم ، رسم صورة المعلم الأول ، وقد يكون الأخير ، أو الذي

لم يتحقق بعد، صورة لمعلم لا يمكننا أن ننساه أو لا يمكننا إلا أن نتخيل أن وجوده ضروري وممكن على الرغم من أنه لم يحدث (إن صادفناه حتى الآن).

ومن هنا تقتحمنا الرواية منذ أن نشرع في اقتحامها، عبر توريطنا في رسم مشترك لصورة "المعلم الأول"، عبر دفعنا للتخيل والتذكر والمعاندة والإصرار لتجسيد حالة من الإيثار والكفاح والإبداع عبر اشتراك القارئ في حيرة الراوي وتساؤلاته المستمرة حول قدرته في تصوير "تلك الحياة المعقدة، المزدحمة بالنضال، وعن هذه المصائر المختلفة، وعن هذه العاطفة الإنسانية، ويسأل ما العمل لكي أوصلها لكم يا معاصري؟ ما العمل لكي لا أكتفي بأن أوصل فكرتي لكم فقط، بل لكي تكون من إبداعنا المشترك – نحن؟" (ص: 96).

نحن، من إبداعنا المشترك، إيصال الفكرة هو نوع من البناء المشترك لها. فكرة مدرسة، وصورة لمعلم، هي صورة يزدحم فيها معلمون كثر لم يبنوا مدارس من حجر، بل كرّسوا حياتهم لفكرة تعليم الآخرين والتعلم معهم ومنهم، فكرة جعل المعرفة مدرسة لتعليم منهجيات تغيير الحياة، لا تغييرها فقط، بل إعادة صناعتها بوصفها مصيراً "شخصياً وجماعياً" لا يمكننا صياغته إلا بمفردات جديدة، نعرفها، ثم نؤمن بها، ونقاتل من أجلها، فنحققها ونتحقق عبر مسيرة تحقيقها، معلمون نذروا حياتهم لمثل هذا، فأصبحوا مدارس في "تأسيس المدارس" في ابتكار منهجيات التعليم والتغيير وصناعة الفهم والإرادة، معلمون منهم ديوشين وسقراط اليونانيان، ومحمد والمسيح الأنبياء، وشهرزاد وبيدبا الرواة، ورامبو وجينيه الصعاليك، وجيفارا وفانون الثوار.

الراوي يشدنا إلى الصورة، عبر مقاومة الصورة لرغبة التشكيل "صورة غير قابله للتشكيل"، إنه الصراع، الإغواء الأبدي، الرغبة في تشكيل ما لا يشكل، ثنائية الأثر والحضور، ما نملكه كأثر فقط ونرغب في تجسيده كحضور "لا أستطيع إلا أن أرسم هذه الصورة ... وفي أحيان يبدو لي أنني لن أوفق .. وحينها أقول: لماذا وضع القدر الريشة في يدي إذن؟ أية حياة شهيدة معذبة أحياها ضمن هذا المستحيل، ولكنني أشعر بأنني من الجبروت بحيث أستطيع تحريك الجبال" (ص: 97).

إنه ثنائي آخر، معلم يصنع مستحيلاً من الصعب رسمه، من الصعب استحضاره، وفنان يؤمن بأن رسالته هي استحضار هذا المستحيل عبر تخليده في لوحة، وبين عذاب المهمة المستحيلة وإصرار الخيال تنبثق الصورة.

صورة المعلم الأول

معلم شاب يحضر لقرية نائية، يحمل ورقة تسمح بتأسيس مدرسة موقعة من قيادة الثورة، قرية لم تسمع لا بكلمة مدرسة ولا تدريس، في الاجتماع يستهجن الأهالي الفكرة.

الشيء الذي جعل عجوزاً من القرية يخاطب ديوشين قائلاً: اسمع يا بني، في الماضي كان الأطفال يتعلمون عند الملا، وقد كنا نعرف أباك، كان فقيراً مثلنا، فقل لنا: متى استطعت أن تصبح ملا.

أجاب ديوشين: أنا لست ملا يا صاحبي، أنا مناضل كومسومولي، والآن سيعلم الأولاد مدرس لا ملا. وقد تعلمت القراءة والكتابة في الجيش. فأنا ملا من هذا النوع.

فقال أحدهم: اسمع يا فتى. من الأفضل أن تقول لنا ما حاجتنا إلى المدرسة؟

» ما هذه الـ"ما حاجتنا"؟ سأل ديوشين في حيرة.

فصاح أحد آخر: صحيح ما حاجتنا إلى المدرسة؟ فنحن نعيش منذ الأزل بعملنا الفلاحي، والمعول يطعمنا، وسيعيش أطفالنا على هذه النحو. فما حاجتهم للتعليم؟ القراءة والكتابة يحتاج إليهما الرؤساء. أما نحن، فأناس بسطاء فلا تغرر بنا.

فسأل ديوشين: هل تعارضون تعليم أبنائكم؟

» وماذا لو عارضنا؟ تجبرنا بالقوة؟ ولّى ذلك الزمن، ونحن الآن شعب حر نعيش كما نريد.

فك ديوشين أزرار معطفه وأخرج ورقة نشرها، وقال: يعني أنكم تعارضون هذه الورقة التي ختمت بختم السلطة السوفييتية؟ من أعطاكم الأرض والماء ومن أعطاكم الحرية ... وأضاف: نحن قوم فقراء، وكنا طوال حياتنا مداسين مهانين، عشنا في ظلام، والآن تريد السلطة الثورية أن نرى النور، أن نتعلم القراءة والكتابة من أجل ذلك ينبغي تعليم الأولاد.

فأجاب الشيخ الذي سأل كيف أصبحت ملا: حسناً. عُلم. إذا كنت راغباً فأي شأن لنا؟

» ولكني أرجوكم أن تعينوني. علينا أن نصلح إسطبل البيك الموجود في أعلى الرابية، كما يجب بناء جسر على النهر ليعبر الأطفال عليه، كما أن المدرسة بحاجة إلى حطب ....

فقاطعه سانيمكول اللجوج: على مهلك يا فارس .. أنت فارس ... أنت حرك جداً، ها أنت تصرخ في القرية كلها "سأفتح مدرسة!" ولكن انظر إلى نفسك: لا معطف فرائياً عليك، ولا فرس تحتك، ولا قطعة أرض محروثة في حقلك، ولا داجنة واحدة، فكيف تفكر أن تعيش يا عزيزي.

» سأعيش بطريقة ما. سأستلم راتباً.
» هذا ما كان عليك أن تقول فوراً ... الآن وضح كل شيء، قم بأمورك بنفسك يا فارس ومن مرتبك على الأولاد. ففي الخزانة مال كاف، واتركنا وشأننا، فإن لنا والحمد لله أموراً كثيرة.

هكذا تروي إحدى الطالبات قصة البداية، بداية مدرسة ديوشين،

تلك المدرسة التي يسأل الفنان عن سبب وجودها كاسم فقط على الرغم من عدم وجود أي أثر لها. هذا ما ترويه الطالبة التي تعلمت في مدرسة ديوشين، تعلمت فيها ليس المعرفة أو الاعتقاد فحسب، بل تعلمت أن تخلق مصيرها، إنها المدرسة التي جعلت لطلابها مصيراً مختلفاً عن المصير الذي رسمه الأهل في الحوار مع ديوشين، العمل الفلاحي، والتغذي من المعول، والحصول على معطف وحصان كإمارات للسطوة والمكانة.

الطالبة تروي الحكاية، حكاية تعاند أن تروى، والفنان يحاول تجميع هذه القوى والرؤى المبعثرة، ليرسمها ويتوحد فيها مع فكرته، فكرة تخليد هذه المعلم العظيم، فلم يبق من مدرسته أي أثر سوى شجرتين عملاقتين من الحور غرسهما كعلامة حية، أما طلابه فقد تشتتوا، بعضهم امتلك مصيره وأصبح عالماً مرموقاً، أو مناضلاً معروفاً، أو سياسياً مشهوراً، وبعضهم الآخر قتل في الحرب، فقد كانوا طلابه مقاتلين سوفيتيين حقيقيين....

الصورة تكتمل بلانهائيتها

الكلمات تتوهج إلى رؤى، رؤى مثقلة بالمعني، تجعل الصورة تكتمل نضوجاً وعمقاً وثراءً، ولكن الفراغ يتسع كلما اتسعت الدلالة، ماذا يمكن لصورة أن تضم من حياة شخص، شخص كل حياته زاخرة بالامتلاء والتناغم والحمى والغليان، ليس من لحظة خاوية في حياته....

ولذا، فالرسام يرسم، والرسمة تتعاظم كدلالات متتالية، ديوشين مقاتل في جيش الثورة، ديوشين المنتصر يعود إلى قريته ليؤسس مدرسة، يبنى المدرسة بيديه، ينظف المكان ويدهن الجدران، يحضر الحطب وروث الحيوانات، يصلح المدفأة، .... يدور على البيوت، يجمع الأطفال، يحاور ويقنع ويقاتل ... يحمل بين ذراعيه الأطفال إلى المدرسة، يقطع النهر وهو يحملهم الواحد بعد الآخر ... يعلم الأطفال سنوات وسنوات، ثم يتطوع ليدافع عن بلده في الحرب الوطنية، يقاتل ويجرح ... يتعافى ليعود بعد سنوات، ليعمل ساعي بريد.

المفارقة والحقيقة: حبكة الرواية وطبقاتها السردية

تبدأ الرواية بداية فيض ملتبس، وتساؤل مركب معقد، يشكل إيحاء بهوس ما، فنان يعود لقريته، يتأمل شجرتي الحور؛ شجرتي الصبا، اللعب، الطفولة، اللغز، والإلهام يعود ليشارك في افتتاح مدرسة حديثة في القرية، فنان كان يسأل دائماً عن سبب تسمية الرابية بمدرسة ديوشين، وعمن غرس الشجرتين في قمة الرابية؟ ولماذا؟

فنان يلتقي بالعالمة التيناي "العالمة الجامعية في علم الفلسفة" وقد دعيت أيضاً لتفتتح المدرسة "وهي إحدى طالبات مدرسة ديوشين"، وهذا ما لا يعلمه الفنان ولا من دعاها لتكن ضيفة الشرف، فقد دعيت بوصفها عالمة مشهورة من القرية، وفي نهاية الحفل يصل

من ورشة العلوم والفنون ضمن فعاليات مشروع توظيف الرسوم المتحركة في التعليم.

ديوشين ويحضر البرقيات "برقيات التهنئة بافتتاح المدرسة"، ويرسلها مع أحد الواقفين على باب المدرسة، ويعتذر إذا ما تأخرت مع أنه حاول كل جهده لتصل في أثناء الحفلة، نعم كانت الحفلة قد انتهت، لقد حاول المدير والتيناي دعوة ديوشين ليدخل ويشرب معهم نخب المدرسة، لكن تم إبلاغهم أنه قد أسرع ليوصل البريد لأصحابه ولم ينتظر حتى يسمع الدعوة، عندها يدور الحديث حول ديوشين ويقال بشكل عام وسريع ومتداخل إن ديوشين كان في الزمن الماضي يعلم أطفال القرية على الرغم من أنه لم يدرس لا في مدرسة ولا في جامعة، وتندر بعضهم كنا نخاله معلماً، وعندما كبرنا علمنا أنه بالكاد يفك الحروف، ولا يعرف أكثر مما كان يعلمنا . . . عندها تنسحب العالمة وتعتذر من الفنان بعد محادثة سريعة معه وتخبره أنها عائدة إلى موسكو، والذي بدوره يقول لها: كنت أعتقد أنك ستبقين فترة في القرية.

العالمة "التيناي" تعود إلى موسكو، وترسل الحكاية مكتوبة إلى الفنان، الفنان يرسم حكاية أو يحاول رسمها، يرسم طفلاً حافي القدمين ملوح البشرة، يصعد عالياً ويجلس على غصن الشجرة ينظر بعينين متأملتين في المدى غير المرئي، أو يرسم ديوشين وهو يجلس الأطفال على الأرض، ويخرج من جيب معطفه صورة مأخوذة من جريدة، يفتحها ويضعها على الجدار، ويشير إلى الصورة ويقول: هذا لينين، والأطفال يكتبون اسم لينين قبل كلمتي بابا وماما، أو يرسم صورة ديوشين يأمر الأطفال قائلاً: "انهضوا، اخلعوا قبعاتكم: لقد مات لينين. الناس في جميع أنحاء العالم يقفون الآن في حداد. فقفوا أنتم في أماكنكم جامدين، وانظروا إلى هنا، إلى الصورة ولتتذكروا هذا اليوم.

الفنان يتساءل هل أرسم صورة "المعلم الأول" وهو ينقل الأطفال على ذراعية عبر النهر المتجمد وقد مر عنه السادة على أفراسهم هازئين به من تحت معاطفهم، أم ارسمه وهو يقاتل خطيب "التيناي" وأعوانه وزوجة عمها ليمنع أخذها من المدرسة، ويصرخ وهو مدمي ومكسور اليد ويقول اتركوها يا وحوش، أم ارسمه بعد أن أنقذ التيناي من هذا الزواج "كزوجة ثانية" بمعاونة جنديين من الجيش الأحمر ويودعها حيث تذهب إلى موسكو لتكمل تعليمها ويودعها قائلاً: تذكري أنت تصنعين مصيرك، إنه بين يديك . . . سأعتني بشجرتي الحور وحين تعودين إنسانة كبيرة تجدينهما قد نمتا مثلك . . . تعلمي وتعلمي فقط . . . .

أية صورة ارسم لهذا الذي قاتل وعلم نفسه، وقاتل ليعلم الآخرين، عمل مناضلاً ومعلماً وساعي بريد، وما زال يعطي ولا ينتظر منا شيئاً، حتى أنه لم يطلب أن نعرف من هو . . . كيف ارسمه؟ لم أعرف بعد، لكني سأبقى أحاول . . . إنني أبحث هكذا يراوح الفنان كيف يرسم صورة المعلم المعجزة.

التيناي تروي حكاية معلم المصير

التيناي الطفلة تحضر الاجتماع الأول وتصف اللحظة الأخيرة "قال ساتيمكول: قم بأمورك بنفسك، ومن مرتبك علم الأولاد . . . أتركنا وشأننا. واستدار بحصانه وعاد إلى بيته وتبعه آخرون. وظل ديوشين واقفاً وورقته في يده ولم يعرف المسكين إلى أين يتجه الآن.

هذه خيبة الطفلة من أهل قريتها، ولكنها لم تكن خيبة تفضي إلى اليأس، بل هي استراحة الرؤيا، لحظة لا يعبر عنها بالكلمات والمفاهيم بل بالحدوس والرؤى لحظة انبثاق الإحساس بالمصير. للأطفال قدرات خاصة في حدس الطاقة، فوجودهم بين الحلم والواقع يمنحهم المقدرة على القبض على العالم ضمن سيرورته، وقبل اكتماله، حين يكون الشيء في طور الولادة.

لذلك، فتيناي لم تنسحب مثل الآخرين "قد أشفقت على ديوشين ورحت أنظر إليه مثبتة فيه بصري . . . حتى صاح بي عمي، وقد مر بي: ماذا تفعلين هنا أيتها الشعثاء فاغرة الفم؟ اركضي للبيت!

إن تلك اللحظة من التواصل البصري، لم تكن لحظة خاوية، بل هي لحظة امتلاء وانبثاق، إنها بداية اكتشاف كلام المصير والتوحد فيه، هذا ما أحسته التيناي، فما يقوله أهل القرية على سبيل التندر تحسه جزءاً من المصير "وحين يراه الناس، وهو يتسلق كل صباح إلى الرابية حيث الإسطبل المهجور، يقفون ويتحدثون في دهشة: أهذا هو المعلم ديوشين يحمل حزمة حطب؟ الظاهر أن عمل المعلم ليس بالأمر الهين.

» ماذا كنت تظن؟ انظر كم يحمل على نفسه. لا يقل عن خادمة البيك.
» إذا سمعت كلامه لما تصورته بهذا الشكل!
» نعم. لأن له ورقة فيها ختم. وكل القوة فيها.

المعلم يملك قوة. كل القوة ليس قوة الورقة، بل قوة الإرادة والإيمان في الرسالة التي تجسدها الورقة، وهذا ما أعطى المعلم وفعله عينين تبصران المعنى وتؤسسان منصة للمصير الجديد.

فالتيناي تروي قائلة: "ذات مرة بينما كنا عائدات بأشوال مليئة بالزبالة والروث التي كانت تستعمل كوقود . . . انعطفنا نحو المدرسة . . . لنرى ماذا عمل المعلم فيما كان إسطبلاً للبيك قبل الثورة، فوجدنا الحشائش مجتثة، والحوش منظفاً . . . ولما رآنا مسح العرق عن جبينه، وقال: من أين أنتن يا صبايا؟ جميل منكن أن تأتين إلى هنا فإنكن ستتعلمن هنا. ويمكن القول إن مدرستكن قد اكتملت تقريبا . . . الموقد والجدران بقى إحضار الوقود "الحطب والزبل والحشائش" . . . هل تردن أن تتعلمن وتأتين إلى المدرسة؟

كنت أكبر صديقاتي سنا فعزمت على إجابته قائلة: إذا سمحت عمتي أتت. وعندما ذهب المعلم للبحث عن العشب الجاف، تضيف التيناي نهضنا وألقينا الأشوال على ظهورنا وخطونا نحو القرية. فجأة، طرأت على راسي فكرة فصرخت: مكانكن يا صبايا، هيا نبقي الروث الجاف للمدرسة، وسيكون وقدوداً للشتاء. وعلى الرغم من امتناع صويحباتي عن تقديم أكياسهن للمدرسة بسبب خوفهم من العودة خاويات الوفاض، ونتيجة لتأخر الوقت الذي لن يسمح بإعادة ملء الأكياس، فإنني قررت تقديم الكيس للمدرسة.

هنا طالبة لم تدخل المدرسة بعد، لكن ديوشين قد خاطبها بابتسامة، وقال لها هذه مدرستكن، وسألها عن اسمها، وقال لها إن اسمها لطيف، ودعاها للحضور إلى المدرسة وطلب منها أن تناديه بالمعلم، كل ذلك شكل مقدمات تحولت "من دعمه بالبصر كما فعلت يوم الاجتماع" إلى دعمه بالموقف والفعل "فقررت أن أفعل ذلك بنفسي، ولكن لماذا؟ هل لأن صويحباتي لم يفعلن ما قلت، أم لأن إرادتي ورغباتي منذ السن المبكرة كانت قد طويت تحت صرخات وصفعات الغلاظ من الناس فأردت فجأة أن أشكر بطريقة ما رجلاً، لا أعرف في الواقع على ماذا، على لطفه أم على ابتسامته التي أدفأت قلبي، أم على ثقته بي، وعلى كلماته الطيبة، لقد كنت أعرف ومتأكدة من أن مصيري الحقيقي قد بدأ في ذلك اليوم بالذات. من شوال الزبالة الجافة . . . وذلك لأنني في ذلك اليوم ذاته، ولأول مرة في حياتي، قد عزمت، دون إطالة وخوف من العقاب، **على أن أفعل ما رأيته لازماً**.

إن وجود مثل هذا المعلم منح هذه الطفلة فرصة لملاقاة شيء غير عادي، فعايشت لحظة خارقة لا يكون فيها الإنسان مجرد شيء، بل معجزة، وهذا ما جعلها تحس بأشياء مثقلة بالمعني وتؤمن بذاتها وتقدم على رؤية وجودها على شكل نبوءة تعلن عن شيء ما بكل إيمان وهدوء ويقين وشجاعة.

الطفلة تعايش لحظة ولادة، ترى ممرات جديدة في الحياة، تقدم ما جمعته في كيسها. وتعود لتجمع مادة جديدة كي لا تعاقب من عمها وزوجته وهي اليتيمة، ولكن مغيب الشمس وصمت التلال يداعبها . . . فتركض في هلع "لعلني صرخت وبكيت أيضاً. ولكن ما أمسكني عن ذلك، رغم ما فيه من غرابة، هو تفكيري غير الواعي بما سيقوله المعلم ديوشين لو رآني معدومة القوى هكذا. فلممت شتات نفسي متمالكة إياها. ومنعها من التلف مرة أخرى، فالمعلم يراقبني . . . (ص: 39).

إن ما انبثق لهو مصير جديد، فمن ذاكرة هذه اللحظة، بدأ تاريخ مختلف لإنسانة، ولمشروع، ولمسيرة معلم ومدرسة، طالبة تندغم في المشروع عبر "شوال من الزبالة"، لكنها بداية للدخول إلى المدرسة، لا كمتعلمة بل كمؤسسة، كصاحبة مشروع، مؤمنة، مضحية، ملتزمة، عاشقة، بداية أسست لميلاد صورة لمعلم "تخجل إن ظهرت ضعيفة أمام بصره". إذاً، هو معلم يحرض القوى ويدفع طلابه على إيقاظ قواهم الهاجعة. يقظة روح واندفاع في الوجود يمكنان معلماً من العبور في طلابه كصائد لكل إشاراتهم، يلتقط ما في داخلهم، ويعيده لهم أكثر وضوحاً وقوة، فيمكنهم من اصطياد الزمن، واختطاف أكثر لحظاته مصيريةً لنسجها كوقت لإنجاز مشروع الذات.

ديوشين ينتقل من بيت إلى بيت ويجمع الأولاد للمدرسة، . . . يصل وهو يقود تلامذة المستقبل لبيت التيناي "التي تتمنى أن يصل

من إحدى زيارات المعلمين البريطانيين إلى المدارس الفلسطينية.

بيتهم البعيد رغم معرفتها أن زوجة عمها لن تسمح لها بالذهاب إلى المدرسة، فقد وددت مع ذلك أن يأتي ديوشين إلى هنا ليرى على الأقل أين أعيش" (ص: 41).

ولكن يصل ويترجم إيمانه لا إلى فعل يثق بقدسيته، بل يترجمه إلى طاقة إيمانية تخترق الآخرين.

"مرحبا يا سيدة، كان الله في عونك، وإن لم يكن يساعدك كنا نحن نساعدك جميعاً، انظري ما أكثرنا"، هكذا حيا ديوشين عمتي مازحا.

تمتمت بشيء. وعمي لم يتكلف برفع رأسه، ولم يربك ذلك ديوشين، بل قعد بهدوء على خشبة، وأخرج من جيبه قلم رصاص وورقة: اليوم سنبدأ الدراسة في المدرسة كم عمر ابنتكما؟

ردت عمتي: ولم تريد أن تعرف، هل أنت محقق؟ إن الدراسة ليست من شأنها. لا يتعلم من لا أهل لهم... ها أنت قد جمعت قطيعاً، فسقه إلى المدرسة. فغضب عمي من موقف زوجته وتجاهلها لوجوده، فبعثني إلى المدرسة.

التعليم والحلم وإعادة إشعال الكلمات

دخلنا المدرسة، جلسنا على القش، وأعطى المعلم كل واحد منا دفتراً وقلماً ولوحة خشبية، ضعوا اللوحة على ركبكم لتكتبوا بصورة مريحة، قال: ديوشين شارحاً ثم أشار إلى الصورة رجل روسي ملصقة على الجدار، وقال: هذا لينين.

كان لينين... وكانت نظراته تقول لنا: "آه لو عرفتم يا أولادي أي مستقبل باهر ينتظركم؟"، وقد بدا لي أنه هو أيضاً كان يفكر في مستقبلي في حقيقة الأمر.

معلم يجمع الأطفال في زاوية مهملة من العالم، ويضعهم في صلب ما يجري، ويخلق عندهم إحساساً بأن مصيرهم هو بؤرة ما يحدث، ويجعل منهم جزءاً من مشروع كبير يتجاوز الحدود التي يعرفونها "لعالمهم" الجغرافي والعمري، ويشعل عندهم الثقة بما هو آت.

قال ديوشين سأعلمكم، يا أولاد، القراءة والكتابة... سأعلمكم كل ما أعرفه أنا، وبالتأكيد علمنا كل ما يعرف هو نفسه، كان له صبر مدهش، كان ينحني فوق كل تلميذ ويريه كيف ينبغي أن يفعل، شرح لنا بحماس الكلمات غير المفهومة.

معلم لا يملك من المعرفة إلا قليلها. لكنه يملك الإصرار والإيمان والشغف بما يعمل، يرى نفسه مولداً من مولدات الأمل، وفاعلاً من فواعل التاريخ، يضع نصب عينيه صورة مطوية ممزقة "لقائد الثورة" الذي لم يره ولن يراه إلا في هذه الصورة، ويستمد من ذلك فكرة حياته، إننا معاً نبني المستقبل، أنا مثلك أقاتل وأغير في مكاني كما تفعل أنت في مكانك، فنحن إذن أنداد.

لقد علمنا ديوشين فيما يسمى "الإلهام"، و"إنني مؤمنة بأن حماسته الصحيحة التي قام بعمله بها لم تذهب هباءً" (ص: 45). لقد أتي بمأثرة دون أن يعلم، نعم لقد كانت مأثرة. لأننا نحن الأطفال القرغيزيين[2] الذين لم نخرج قط خارج حدود قريتنا قد فتح لنا فجأة في تلك الأيام في المدرسة -إذا أمكن إطلاق هذا الاسم على ذلك الكوخ- عالماً جديداً لم نسمع به ولم نره من قبل.

هنا نوع من تعليم يبنى على التدفق والتناغم، سريان الحب والحلم، معلم يجمع بين الإيمان والحماسة، بين المعرفة والتَّوق، رجل موقف ومشروع، يملك ثقة بألم الحاضر وأمل المستقبل، يصنع يقينيات جديدة، ويرسخ رموزاً، يشحن خيالات، ويحرض على إبداع مصائر.

"فبعد أن فرغنا من الألف باء، قبل أن نعرف كتابة (ماما) و(بابا)، خططنا على الورق اسم لينين، وكان قاموسنا السياسي مكوناً من كلمات مثل (بيك) وأجير (عامل) و"سوفيتيات"، ووعدنا ديوشين بتعليمنا بعد عام كتابة كلمة "ثورة".

معلم لا يلقن معرفة، معلم مشغول بالإنسان، معلم يرى المصير ويقرر مساهمته في صنعه، قصص وحكايات حول القائد الملهم، حول الثوار، الحصص جزء من معارك يخوضها الشعب ضد "البيض المعادين للثورة"، كل عام نتعلم كتابة كلمة إنها كتابة من نوع آخر، كلمة القائد نتعلم كتابتها، لكنها كتابة كلية، كلمة تتشقق لكلمات ودلالات ومعان، توضع في سياق بناء الثقة في المتعلمين وفي كونهم بشراً وجزءاً من حركة سياسية اجتماعية، ووضع لهذه الحركة في سياق ماذا نريد من العالم؟ وكيف نتمنى أن نحيا؟ وكيف نحقق ذلك؟ وبالتالي فالكلمة نافذة على عالم لا نسعى لا إلى رؤيته فحسب، بل عالم ندخل في بنائه، في العام التالي نتعلم كلمة ثورة، كلمة ثورة تنفتح على مقولات الظلم والعدالة، الحقوق والنضالات، الشعوب والثورات، الثورة وفلسفتها؛ دلالات الفعل والتضحية، ولكن يجب أن يتم وضع كل هذا التعلم في مركز صغير وشخصي وحميمي؛ وهو كيف ينجز كل طالب ثورته الشخصية بوصفها قفزة عظيمة في صناعة مصيره الشخصي. إنه اجتراح للكلمات في الواقع، وحفر بالكلمات في مصائر البشر، وتوظيف للكلمات لتوليد الطاقة الداخلية للبشر، وإعادة صياغة لجغرافيا الحلم والواقع، وإعادة صياغة تؤجج الرغبة في المعرفة والبحث، لخلق بشر يصرون على قيادة تعلمهم من أجل قيادة مصيرهم.

إن هذا النوع من المعلمين، وبفضل ما يوظفون من حكايات وأحلام ومتخيلات وتقاطعات معرفية مجتمعية "وتداخلات زمانية" كل ذلك يخلق التلميذ المعجزة؛ تلميذ "يعيد إشعال جذوة رغباته وطاقاته"، ويضعها في خدمة مشروع المدرسة المشتركة من أجل الإنسان وحياته، لجعل الأحلام ممكنة ومرئية، عبر مدرسة تدخل طلابها في التاريخ للمشاركة في صناعته، لا التلصص عليه عبر قراءته فقط.

إن هذا النوع من الإخصاب التاريخي، يجبر اللحظة على الولادة من الفخذ، ولادة تحقق الميلاد المقترن بالنقاء والعذرية معاً، أي الميلاد المقدس، ميلاد الفلاسفة والأنبياء، من هم لقطاء لا تعترف بهم

السلطة التقليدية، ولكنهم نماذج ملهمة للجيل الناجي "كانت كل كلمة من كلمات المعلم، كل حرف يكتبه مقدساً في نفسي، ولم يكن في العالم شيء أهم عندي من استيعاب ما يعلم ديوشين، اعتنيت بالدفتر، فكنت أخط الحروف برأس المنجل على الأرض، وأكتب بالفحم، وبالعود على الثلج، وعلى تراب الطريق، وأنا أعتقد أن من هو أذكى وأعلم من ديوشين بالنسبة لي لم يوجد.

الكتابة برأس المنجل، آلة حصد الخبز، تنصهر في يد طفلة المصير إلى أداة تجمع المعرفة بالخبز، تحرث أرض القرية لتخصبها بكلمات جديدة، تكتب كلمات المعرفة في ثلم الأرض، أرضٍ تحقن بمادة جديدة (كلمات الثورة والأمل والمصير) لتخصب إنساناً جديداً.

كل هذا تحقق بفضل معلم يمتلك "حماسة" كافية لتحقيق أشياء الروح "الأحلام، الآمال، الرغبات"، إلى أشياء تتحرك بشكل محسوس، معلم يمكّن طلابه من:

1. الدخول إلى "حدود العالم الكبير" عبر تعليم يحقق لهم السفر والهجرة في تخوم العالم الكبير، ليتصيروا جزءاً من حركة كبيرة "لقد عرفنا أن موسكو مدينة كبيرة أكبر بكثير من أوليبتا، وحتى من طشقند، وأن في العالم بحاراً كبيرة، تمخرها بواخر ضخمة، وعرفنا أن الكيروسين يستخرج من تحت الأرض، وآمنا في يقين بأن الشعب حين يبدأ بالعيش بشكل أغنى، سينقل مدرستنا إلى بيت أبيض كبير ذي نوافذ واسعة يجلس فيها التلامذة وراء طاولات" (ص: 45). إذن هي حالة من السفر في جغرافيا العالم والحلم، معرفة تضيء قضايا في الجغرافيا والتاريخ، ولكنها تحدس بالمستقبل وتنتج خطواته عبر الإيمان به.
2. الإحاطة بمصيرهم، فما سيحدث لهم ليس "محدوداً بحدود واقعهم الحالي" بل هو حركة مفتوحة على أفق واسع وكبير بحجم أحلامهم وتوقعاتهم ورغباتهم، فمصير من سبقنا كان "فقيراً" لأنهم لم يتعلموا أن يحلموا، وأن يؤمنوا بقدراتهم، لقد علمهم ذلك، لا لم يعلمهم إياه، بل صنعه أمامهم". إني أفكر في ذلك العجب: كيف استطاع ذلك الشاب القليل المعرفة، الذي لم يكن في حيازته أي كتاب دراسي، أن يقتحم هذا الأمر العظيم، تعليم أطفال كان أجدادهم وأجداد أجدادهم حتى سابع ظهر أميين ... لقد حقق ذلك بهذا العناد الغريب، وهذا الإصرار غير الإنساني (ص: 49).
3. الثقة بالقادم، وإعادة رؤية الواقع ضمن حدود جغرافيا الرغبة والحلم، وضمن ثقة كبيرة، فنحن لسنا وحدنا، نحن جزء من حركة ملهمة ومشروع كبير، "هنالك شعب يختار صناعة مصيره"، وهناك قائد يفكر في مستقبلنا، وهناك صعوبات وأعداء ولكننا نملك الإصرار على أن نتعلم ونقاتل ونوجد.

من إحدى زيارات المعلمين البريطانيين إلى المدارس الفلسطينية.

معلم دون أي إعداد تربوي رسمي، يعد نفسه كمعلم "بالطبع لم يكن (للديوشين) أدنى فكرة عن المنهج وطريقة التدريس، وأغلب الظن أنه لم يتصور أن مثل هذه الأشياء موجودة" (ص: 44). إذاً، هو لا يملك عدة التربية بشكلها الرسمي والنظامي، لكنه يقبض على روحها، شاب مفعم بالحيوية، مؤمن بالمستقبل منخرط في صناعته، جاء من ميدان القتال، ليقاتل على جبهة التعليم، يعلم القراءة والكتابة في كتاب الحياة، يقوي أصابع الطلاب لتقبض لا على القلم فحسب، بل لتقبض على المصير.

تصف الطالبة الرواية اللحظة التي طلب منهم فيها أن يقفوا وقفة حداد على موت القائد، "في تلك الساعة التي صمتت المدن التي لا تهدأ، وهدأت المصانع التي تهز الأرض، وجمدت القطارات الهادرة في خطوطها، وغرق العالم كله في حداد، في تلك الساعة الشجية وقفنا، نحن الجزئية الصغيرة، جزئية الشعب، في مهابة واحتباس الأنفاس، وقفة الحداد مع معلمنا في تلك السقيفة المتجمدة غير المعروفة لأحد والمسماة مدرسة. ودعنا لينين معتبرين أنفسنا أقرب الناس إليه ... وكان يطل علينا ويحدثنا" آه لو عرفتم يا أولادي أي مستقبل باهر ينتظركم" وبدا لي في تلك اللحظة الصامتة أنه يفكر لمستقبلي حقاً (ص: 53).

شكل الحكاية وحكاية الصورة

حكاية تتسم ببساطة الحكي الشعبي، فهي حكاية مفرطة في البساطة، وتتسم في الوقت نفسه بالتعقيد الروائي، فهي أيضاً ذات حبكة مفرطة التعقيد، حيث ثنائية الفنان السارد، المشغول برسم الصورة المستحيلة "لمعلم" معرفته الكاملة غير ممكنة، والعالمة المقيمة في موسكو، ابنة قرية، تلميذة ديوشين، التي تحضر للقرية لتكون ضيف الشرف في افتتاح المدرسة الثانوية للقرية، فتستعيد الماضي الذي تصفه "وأنا لم أنسَ الماضي. لا، فليس في وسعي أن أنساه، بل انفصلت عنه على نحو ما" (ص: 93).

وتعاني في الوقت نفسه من الشعور بالذنب "لأنني لم أكن الشخص الذي يجب أن يحاط بكل هذه الحفاوة، ويجلس في مكان الشرف أثناء افتتاح المدرسة الجديدة. فإن هذا الحق يملكه معلمنا الأول، دون أي شخص آخر، يملكه أول ثوري في قريتنا، والذي حدث عكس هذا، جلسنا نحن وراء موائد الوليمة، وكان ذلك الرجل يسرع لتوزيع البريد.

وتدور الحكاية مع دوران الريشة في بحثها عن خطوط وعلامات لصورة لا تكتمل، صورة معلم يجتمع بالأهالي لإقناعهم، ويؤكد أنه ليس ملا تقليدياً، بل ملا من نوع جديد، معلم يعمل بإصرار لتهيئة الإسطبل كمدرسة، يدور في القرية يحمل الإقناع للبيوت، ويعود إلى مدرسته بتلاميذ المستقبل، يعلم الطلاب الحلم بالمستقبل، ولا يتوانى في الدفاع عن حقهم بهذا المستقبل، حتى لو اضطر أن يقاتل ويضرب كما فعل عندما "حضرت عمة التيناي وخطيبها" لجرها من المدرسة إلى بيت الزوجية، يضرب، ولكنه يبقى يصرخ بالمصير الجديد الذي يراه، يستعين بقوات الثورة، وبالقانون الجديد، ويحررها مرة أخرى، ويؤمن لها السفر إلى موسكو، يعود ليشترك في الحرب الوطنية، يقاتل ويصاب ويمكث في أوكرانيا سنوات، ثم يعود إلى قريته لا ليموت فيها، بل ليعمل مرة أخرى كساعي بريد.

الآن يحمل رسائل الآخرين، من يبعثون الرسائل يكون يدهم، ويد من ينتظرونها، فهو يوصل الرسائل للآخرين بعد أن حقق رسالته، رسالة المعلم، عندما كان المعلم وضع في "صلب مهنة المعلم" دور ساعي البريد، فقد حمل رسالة الثورة إلى أقاصي المجتمع، حمل رسالة المستقبل إلى اللحظة التي كانت غارقة في ماضيها، وخاوية من أي أمل. لقد حمل رسالة "لم يكن يمكن لها أن تصل إلى هذا المكان في هذا الزمن"، رسالة كانت بدونه ستتأخر إلى عقود، رسالة بفضله وصلت مبكراً، سبقت أوان وصولها، إذن هو المعلم الساعي ليس بالبريد، بل بالزمن، فالمعلم ليس ساعي بريد، بل البريد الذي يسعى بالزمن.

لقد التقط المهمة التي كانت عائمة بعيداً، ورأى الإشارة قبل انبثاقها، ورؤية ما لم ينبثق بعد هو فعل يساوي خلقه أو صناعته، معلم يقرأ الإشارات، لقد قرأ مستقبل التيناي من إشارة صغيرة "كيس من الزبالة"، فالتيناي تصف حالتها بعد أن سألها ديوشين مؤكداً أنها من وضع حزمة الروث في المدرسة "أذكر أنني شعرت في تلك اللحظة بنار تلهب وجنتي، يعني أن المعلم عرف ولم ينسَ ما قد يبدو حادثاً تافهاً ... وقال: أنت لامعة الذهن - آه لو استطعت أن أرسلك إلى المدينة ... (ص: 50).

معلم يقرأ الإشارات، ويصنعها "لقد أحضر غرستي حور، وقال: سنغرسهما معاً، وحين تكبران .... تكونين قد كبرت أيضاً ... ونفسي تحدثني دائماً بأنك ستكونين عالمة كبيرة، أنا مؤمن بذلك، وسترين بنفسك أن هذا مصيرك ... وأكمل يصف الشجرتين، وسترين أية شجرتي حور جميلتين ستكونان، ستقفان هنا مثل شقيقتين ... وستكون الحياة غير هذه الحياة يا التيناي ... الأيام الرائعة في المستقبل ... (ص: 69).

هل كان لـ التيناي مصير "عالمة" قبل أن يراها ديوشين، أم أن ديوشين، قد غرسه فيها، كما غرسا شجرتي الحور، بعد أن مهد الأرض لتتعهد الشجرتين، ومهد الأرض الداخلية لـ "التيناي" للقبض على هذا المصير.

لقد أرادت لها عمتها أن تجعلها الزوجة الثانية لرجل، الرجل الذي عهد بالتيناي لزوجته الأولى لتعلمها كيف تكون زوجة، زوجة أولى تصفها التيناي: "في نظرتها يستقر خواء حالك فارغ بيت القشعريرة فيك، وقد نظرت في عينيها الميتتين فخيل لي أنني أنا الأخرى بلا حياة وأنني في اللحد".

لقد استحوذت على رأسي فكرة واحدة لا تقاوم - الإفلات من هنا أو الموت. فقط أن لا أسمع لهاثه، وشخيره الثقيل، فقط أن لا أظل هنا، وإذا مت فلأمت طليقة في عراك، فقط يجب ألا أرضخ.

يجب ألا أبقى "تكول" تعني الزوجة الثانية، آه ما أشد مقتي لهذه

الكلمة. من ابتكرها في الأزمنة العصية؟ أي شيء أكثر إهانة من حال الزوجة الثانية المكرهة المستبعدة روحاً وجسداً. ابعثن يا تعيسات من القبور، استيقظي يا أشباح النسوة الهالكات المحتقرات المجردات من الكرامة الإنسانية! انهضن يا معذبات وليتبدد ظلام تلك الأزمان الحالك، أنا أتحدث هذا، أنا أتحدث هذا، أنا الأخيرة منكن، المتخطية لهذا المصير.

التيناي تقول هذا وتحفر بالأظافر تحت الباب، يظهر ديوشين، يكسر الباب، الباب مغلق على المصير الجديد، تتحرر التيناي، ورجال المليشيا الثورية تسحب الزوج إلى المحاكمة، وديوشين يهزه من كتفه: تظن أنك قد دستها كما تدوس العشي، قتلتها، هراء! ولي زمانك! وجاء زمانها ..... معلم لا يعيش زمانه فقط، بل يعيشه بطريقة تمكنه من الإمساك بالزمن البعيد "زمن لم يحن بعد"، يستقدمه ويشكله كزمن مندفع يتواءم مع ميلاد أناس جديد، انبثقوا كمصير جديد... هذا ما يحدث مع الزوجة الأولى، تثور الآن على زوجها، تسقط قبعته، ترشقه بالتراب صارخة: هذا جزاء رمي الذي شربته يا قاتل، وأيامي السوداء يا قاتل، لن أدعك حياً... وتضيف التيناي أغلب الظن أنها لم ترفع رأسها أربعين عاماً، والآن انفجر كل ما تراكم في روحها.

هذه هي المدرسة التي أسسها ديوشين، سقيفة يهبط فيها وحي جديد، يفتح قمقم الروح، فيطلق الزمن الجديد كمارد، يحطم أغلال الماضي، يحرر المقهورين منذ عقود ماضية، ويرسم مساراً جديداً لأطفال تعلموا الإيمان بأنفسهم، معلم يشق درباً، يشبه درب عودة التيناي من الجبال، حيث بيت زوجها إلى جامعة في موسكو، درب تصفه الرواية، ويتلمسه الفنان بريشته، حيث التيناي تعود بعد عشرين سنة لطريق عبرتها محررة من وضع الطفلة الزوجة الثانية المقهورة، لتعبرها باتجاه مصير جديد، رسمه معلمها لها في جامعة موسكو، فتقول: لم لا تظل آثار الأقدام على الأماكن التذكارية الحبيبة إليهم، ولو وجدت على ذلك الدرب وقبلت آثار المعلم، لأن الدرب هو درب المصير الجديد.

لوحة لا ترسم الجسد الساعي، لأنه ما زال يسعى خلف رسائل لم تصل بعد، يحضرها ويبعثها لأصحابها، ولا ترسم المدرسة لأنه لم يبق منها أثر يرسم، بل هي درب مرسومة بالخطوات، يخطو عليها ناس مؤمنون بثقة أقدامهم وعيونهم على أفق يتقاطع مع قمتي شجرتي حور صاعدتين إلى سماء صافية.

باحث في مركز القطان

الهوامش:

[1] جنكيز ايتماتوف (1977). "رواية المعلم الأول" من مجلد **قصص مختارة**، موسكو: دار التقدم.

[2] نسبة إلى "جمهورية قرغيز" هي دولة تقع في آسيا الوسطى، تجاور الصين وطاجيكستان وأوزبكستان وقزقستان. عاصمتها بشكيك. استقلت عن الاتحاد السوفيتي في أواخر 1991، وهي جمهورية ذات تراث ديني إسلامي في الغالب وهناك نسبة من المسيحيين، وهي شعوب متمازجة قومياً وعرقياً ولغوياً حيث فيها لغات متعددة وإن كانت متقاربة، وهي البلد التي تجري فيها أحداث الرواية، ويعود لها الكاتب القرغيزي جنكيز ايتماتوف التي شكلت هي وأهلها وثقافتهم موضوعات كل رواياته، ومنها قصة **جميلة** وقصة **وجهاً لوجه** وروايات: **وداعاً يا غولساري**، **يطول اليوم أكثر من قرن**، **النطع**، **السفينة البيضاء**، **الغرانيق المبكرة**، **المعلم الأول**، **الكلب الأبلق الراكض على حافة البحر**.

من فعاليات مشروع توظيف الرسوم المتحركة في التعليم في مخيم شعفاط.